

المؤتمر العالمي السادس  
لبديع الزمان سعيد النورسي

# العولمة والأخلاق

في ضوء رسائل النور  
( البحوث العربية )

ISBN: 975-6438-14-2

Publication: Söz Basım

Year: 2002, İstanbul

## نظرة سعيد النورسي إلى عصر النهضة و علم الكلام

د . عادل محمود بدر(\*)

### مدخل :

إن ولوج العالم الروحي للنورسي، إنما هو دخول إلى محيط متلاطم الأمواج، عميق الأغوار، بلغ شأوه العالي انطلاقاً من روح القرآن الكريم، واستبطاناً لآياته البينات، بعد أن عايشها النورسي روحياً وفكرياً، فأفرزت معاشته طاقات من الأنوار الإلهية استغرقت الدنيا شرقاً وغرباً، ثم انسابت عذبة رقراقة حتى تجسدت على الأوراق في صورتها المعروفة "برسائل النور". وهي رسائل تعبر عن الحقائق الكونية كما هي في طبيعتها التي جُبلت عليها، وتنظر إلى الوحي كما أراده من نزل عليه صلى الله عليه وسلم، معبرة بذلك عن شمولية الروح التي كانت أصلاً لها. وهي من هذا المنطلق الثرى تحيل العقيدة وما يرتبط بها من علوم وأفكار من دائرة الآلية والسكون، إلى دائرة الحيوية والحركية، ومن ربة القيود والصمت والجمود، إلى فضاء الحرية والإعلان والفاعلية، وتلك لعمرى هي علامات الفكر الحي، ودلالات التجربة الحية التي يُعد الفكر ترجمة لها. وأحسب أن هذه الروح التي ترتبط بفكر النورسي، إنما هي روح الفلسفة التي تركز على التجاوز والتعدي والقفز، في مقابل علم الكلام بتقليديه التي تقوم على اللاتجاوز واللاتعدي والجمود، لمحدودية هذا العلم داخل دائرة الحجاج الجدلي للعقل التجريدي من ناحية، وانحصاره داخل الإطار التبريري للعقائد من ناحية، وقيامه على منهج سكوني جامد في كلامه عن مسائل الوحي الحيوية كالله والنبوة وغيرها من ناحية ثالثة، وهو أمر

٥ أستاذ الفلسفة المساعد، جامعة طنطا - مصر

لم يفلت منه النورسي نفسه في بعض الأحيان، رغم معاشته الحية للقرآن الكريم ومنهجه. لهذا السبب لم يقنع علم الكلام القديم روح النورسي المتأججة بنار الإصلاح والتجديد، لأن علماء الكلام رغم اعتمادهم على الوحي الإلهي إلا أنهم عجزوا عن الفهم الحقيقي لآياته بما يتكشف عنه من روح القناعة والاطمئنان، فانغلق علمهم عليهم، وصار علم الكلام علماً دجماً طيقياً مغلقاً يعتمد اصطلاحياً على قواعد خاصة بأصحابها ترتد في جوهرها إلى صراع عصور ماضية. ولذا تتصف فلسفة النورسي بالتجاوز لأنها تتعدى أفق الحدود المرسومة والدوائر الاصطلاحية المغلقة، إلى فضاء علمي مفتوح تتناغم جزئياته، وتتفاعل ظواهره، وتشعر فيه الذات الإنسانية بالأنس الحقيقي مع الكائنات جميعاً، فترهف السمع إلى حركاتها وسكناتها وأناقها، وينشأ لدى الذات المتناغمة مع الكون كله، ما يسمى "بالوعي الكوني" الذي تجد فيه الذات نفسها، في انسجامها مع ذرات الوجود، بعد أن كانت تشعر بالحيرة والضياع في ببداء ظلمات المادية والكفر والانحراف والمحدودية المادية. ومن ثم فهي تنشب بأظفارها في لحمه الوجود الحي الذي يعبر عنه الوحي في بكارته ونضارته، وهي تبخر نحو الأعماق، وتحلق نحو الأعالي لتتلمس روح العقيدة في بساطتها، وترجم عن مكونات الوحي في رهافته، وتعانق آياته الكريمات التي تشبه كل واحدة منها عصا موسى التي تفجر الماء متى وأينما ضربت، وتفتح من كل شئ نافذة تدل على الصانع الجليل وتعرفه، كما عبر النورسي نفسه في كلماته<sup>(1)</sup>، بما يشبه التعريف الصوفي عن الحدس والبصيرة. وذلك هو السبب في تخطي النورسي للحد الفاصل بين المحدود واللامحدود، تاركاً خلفه القوالب التقليدية لعلم الكلام التجريدي التبريري محطماً لها، ليبني فوق قوالبها الجامدة المنهج الحيوي القرآني لتثوير العقيدة في داخل الروح الإنساني فرداً وجماعة على المستويين النظري والعملي التطبيقي، في انطلاق من روح القرآن الكريم التي رفضت بشكل مطلق الفصل المقيت بين النظر والعمل.

لهذا كان النورسي واعياً بأن إصلاح الداخل أو الفرد أو النفس الإنسانية أو القلب هو الأساس الذي ينطلق منه البناء، لأن الخراب بدأ في القلب، ولهذا لزم البدء بإصلاحه، ومن ثم فشل كل من يحاول البناء دون أن ينطلق من الداخل، من الذاتية، لهذا بدأ الرجل بإصلاح ذاته، فمن لا يصلح نفسه لا يمكنه إصلاح الغير، وإرشاد الغير ينطلق من رشاد أنفسنا أولاً، ولذا كانت الأنا أو الذات الإنسانية هي محور الرؤية الأخلاقية عند النورسي

أو هي القاعدة التي ينطلق منها البناء الأخلاقي لديه. ومن ثم كانت نظرتي لفكر النورسى تابعة لكونه لم يهدف إلى تجديد علم بذاته، وإنما كان يهدف إلى تجديد حيوية العقيدة في القلوب، في الداخل، في الشعور، وعندئذ تنبثق العلوم في منظومة حيوية تنطق بما تحمله العقيدة الصحيحة من حيوية و قدرة على إحداث الانطلاق والتغير. ومن ثم كان نقده لنهضة أوروبا الحديثة مواكباً لنقده لعلم الكلام التقليدي، لأنه رأى فيهما معاً تجسيداً لخواء التجربة الروحية الناتج من الإنحلالية على المستوى الحياتي في الأول، والجمود العقلي التجريدي على المستوى النظري في الثاني. فرؤية النورسى تنطلق من جانب نقدي يقوم على السلب والإيجاب كانت مهمته تشييد قاعدة البناء التي تعبر عن التجربة النورانية الحية مع آيات القرآن الكريم. وبعد، فلما كان للفكر جدل باطني يسير به إلى الإمام، حيث يقف كل مفكر من رؤى سابقه موقف المحاور من زاويته الخاصة، فيرفض منها ما لا يراه من خلالها، ويثبت ما يراه هو في نفس المسائل المطروحة، ولما كان تاريخ الفكر يمثل منبعاً هاماً من منابعه، إذ لا ينفصل الفكر عن تاريخه، فهو دائم الاطراد بأفكار روافده، وإذا كان القفز إلى الأمام غير مجدٍ إلا إذا سبقه تراجع إلى الوراء، فحاضر الفكر يتجدد بمدى الجدوى التي حصلناها من ارتدادنا إلى ماضيه، وإذا كان تاريخ الفكر من ناحية أخرى ليس إلا رمزاً يعاد فهمه، أعني رمزاً يسمح بتعدد الرؤى، أو بتعدد زوايا الرؤية لثرائه بالدلالات، وإذا كانت الحقيقة، أيا كانت لا يمكن أن تفض في صورة واحدة، لأنها ليست أحادية الجانب، وإنما تعبر عن تعددية الاتجاهات إلى ما لانهاية، وإذا كان الرمز يولد الحرية، حرية الوعي في إبداعه للمعنى وإعادة البناء، وإذا كانت القراءة هي إعادة تجديد لروح الفكر، حيث يتجدد ما هو قديم بإعادة فهمه ورؤيته من جديد، وإذا كان الفكر في نهاية الأمر إمكاناً يعاد خلقه، وإذا كان فهماً للفهم، فليس هناك ما يمنعنا اليوم من تناول ما تناوله السابقون بالبحث والدراسة، وفق رؤية نقدية، فهذا ما يثرى الفكر ويسمح بحياته واستمراريته. وأحسب أن هذا هو الطريق الأمثل لإثراء رؤيتنا لفكر الإمام النورسى ولعلمه الروحي المديد.

### أولاً : رؤية النورسي للنهضة الأوروبية الحديثة

يقف الإمام النورسي من النهضة الحديثة موقفاً نقدياً يقوم على السلب والإيجاب. ويجسد في البداية الأسباب الحقيقية وراء هزيمة أوروبا وتقدمها مجملًا إياها في ضيق المكان وكثرة السكان ولطافة المناخ، وتواجد الحديد في أراضيها، مع ازدياد الحاجة التي هي أم الاختراع والصناعة، وحب الاستطلاع والميل إلى المعرفة<sup>(2)</sup>. ويربط الإمام ربطاً محكماً بين التعارف التجاري الذي ولده ضيق المكان في أوروبا، والتعاون المشترك في الأعمال، وبالتالي في الأفكار، لأن التماس يولد تلاحق الأفكار والمنافسة والتسابق<sup>(3)</sup>، وبالجملة ينتج عنه الإبداع ثم يرى أن الدول الأوروبية تشكلت بفعل العلم، الذي حقق نوعاً من التوازن بينها مما أدى إلى نمو استعدادات الأوروبيين وتفجرت لديهم المزايا والفكر القومي، والنورسي يطبع كل أسباب النهضة الأوروبية بالطابع الفطري، ثم يحدد نقطة استناد هذه النهضة، فيرى أن الأوروبي يجد وراءه نقطة استناد قوية تعزز قوته المعنوية وتبعث فيها الحياة، حيث يجد في نفسه من القوة ما يمكنه من اقتحام عظيم الأعمال وأصعبها، وهي مدينة أوروبا التي يردّها إلى الكنيسة مرة وإلى النصرانية مرة، فيرى "أنها معسكر كتلة مسلحة وكنيستها العظيمة، وهي مستعدة في كل آن أن تنفخ الحياة في عروق رفقاء دينها الذين يمدون إليها أيديها من كل صوب..."<sup>(4)</sup> والنورسي هنا يقدم حكماً قيمياً لا يصدق بالدرجة الأولى على حقيقة المدنية الأوروبية التي هي صنعة الرأسمالية والمذاهب النفعية والبراجماتية والداروينية، فبدايات هذه النهضة كانت ثورة على كل ما هو كنسي وما هو نصراني. وهذا الحكم ربما تولد في ذهن النورسي من رؤيته لمدينة أوروبا على أنها موجهة، من حيث كونها كتلة مسلحة - نحو قطع الشريان النابض للمسلمين"، وذلك لأنها - أي هذه المدينة - "قد عجت بتعصب محاكم التفتيش المدنية الماكرة، والإلحاد النابع من الفكر المادي"<sup>(5)</sup>، ولأن ذلك موجه إلى مسلمين، فلا بد وأن يكون صادراً عما هو مناف في جوهره للعقائد الإسلامية، وهي الكنيسة أو النصرانية، وربما يصير هذا صادقاً، إذا كانت دول أوروبا دينية وليست علمانية كما هي منذ بزوغ نهضتها العلمية.

ويبين الإمام النورسي في الجانب السلبي مثالب الحضارة الغربية حاصراً إياها في دائرة مركزها النزعة الإلحادية أو الموقف السلبي من الأديان، وهو ما نتج عنه مضاعفة

عيوبها، لأنها ناقضت دساتير السماء، بل حاربتها، مما أدى إلى إيقاع البشرية في فقر مدقع، الأمر الذي ضاعف من حاجاتها، مع تماذيتها في الحرص والإسراف والطمع، فانتشرت الرذائل وانحطت الإنسانية إلى أسفل سافلين بعد أن كانت في عليين<sup>(6)</sup> ويخلط النورسى بين الكسل والخواء الروحي الذي أحدثته المدنية الأوروبية، نتيجة السقوط في هاوية الترف والدعة والانحلالية، وبين الكسل الذي يقعد عن العمل ويؤدى إلى التقاعس الرهيب، ذلك أن النهضة لا يمكن أن تتوافر ظروف تحققها إلا بالعمل الدؤوب في كل المجالات... ولعل الإمام كان يقصد بشيوع الكسل ما ينتج عن النزعة الاستهلاكية من كسل في فهم حقائق ظواهر الكون، التي تنطق بمعنى الألوهية، وتنافي الإلحاد الذي صاحب المدنية<sup>(7)</sup>.

وبرغم ما أنجزته المدنية الأوروبية من نعم ربانية في ساحة العلم، إلا أن هذه النعم قد استغلت بشكل عكسي فأدت إلى الكسل والسفاهة، إذ ذكت نار الأهواء النفسية وأثارت كوامن الشهوات وأدت للذي أشرت إليه آنفا من قعود الإنسان عن الكد والسعي والشوق إلى العمل، ثم تسوقه بعدم القناعة إلى الظلم وارتكاب المحرمات وإلى السفاهة والإسراف<sup>(8)</sup>.

ومن ناحية أخرى فرما ظهر الخلط واضحا عند الإمام النورسى في اعتباره الإلحاد كنتيجة من نتائج تطور العلم التجريبي في أوروبا، إذا الثابت تاريخيا أن النزعة الإلحادية قد تولدت عن ثورة العقل على الأفكار الكنسية التي أسقطت أوروبا في تخلف وجهالة العصور الوسطى لأنها تناقض روح المنهجين العقلي والتجريبي معاً، فوقفت حجر عثرة أمام تطور العلم، مما أدى إلى فقدان الثقة الكامل في جدوى هذه الأفكار. ومن ثم كان الإلحاد تابعا بالدرجة الأولى لفقدان هذه الثقة في تعاليم الدين المسيحي وأفكاره ممثلة في الكنيسة، وما تابع ذلك ودعمه من شيوع الترف والرفاهية التي صاحبت النهضة، حتى أزاح الإنسان الدين ظناً منه أنه قد أصبح سيد الكون دون الله تعالى<sup>(9)</sup>. ولا ينسى النورسى - في دائرة نقده للنهضة الحديثة وما صاحبها من مدنية ارتبطت بنزعة الإلحاد سواء بالثورة على الكنيسة كما أشرت، أو بشيوع الترف والدعة التي أدت إلى ذات النتيجة - أن يقسم أوروبا ذات النهضة إلى قسمين: فهي من جانب أوروبا المسيحية التي تدين بالدين المسيحي، وأوروبا العلمانية التي أفرزت، كما أشرت آنفا،

التيارات الوضعية والعقلانية، وما واكبها من تفرعات برجماتية و داروينية وماركسية وغيرها... الخ تميزت بالأفكار المادية البحتة. فالإمام في صورته الجديدة، صورة "سعيد الجديد" عندما أراد أن يضع عن كاهله صورته القديمة المثقلة بأعباء الفلسفة المزخرفة ولوثات الحضارة السفهية، رأى في حوارهِ مع الشخصية المعنوية لأوروبا لكبح جماح ما في روجه من أحاسيس منحازة لصالحها، أن أوروبا اثنتان " إحداهما هي أوروبا النافعة للبشرية، بما استفاضت من النصرانية الحقّة، وأدت خدمات لحياة الإنسان الاجتماعية، وبما توصلت إليه من صناعات وعلوم تخدم العدل والإنصاف، وثانيها أوروبا التي تعفنت بظلمات الفلسفة الطبيعية وفسدت بالمادية الجاسية وحسبت سيئات الحضارة حسناً لها وتوهمت مساوئها فضائل، فسأقت البشرية إلى السفاهة وأردتها الضلالة والتعاسة"<sup>(10)</sup>

فالرجل يؤطر الحضارة الأوروبية ما بين إطار نافع خادماً للبشرية، وهو إطار الفنون والعلوم التي استمدتها من المسيحية، وإطار فاسد أفقد الإنسان سعادته وأورثه لباس الشقاوة، وهو الإطار المادي العلماني الذي أسقط البشرية في أحوال الإلحاد وترك الإنسان معذباً رغم ما قد يملكه من ثروات هائلة، وترفله في زينة خارقة ظاهرة، فهو المصاب في روجه وفي وجدانه وعقله وقلبه بمصائب هائلة<sup>(11)</sup> والإمام يضع يده على حقيقة صارت جوهرية بالنسبة للروح الأوروبي، وهي أن الإنسان الأوروبي يفتقر للسعادة رغم كل ما تقدم، وشقوته ترتد إلى ما وصلت إليه حضارته من مدنية وآلية أفقدتها نضارتها فدب الوهن فيها فشاخت لبعدها عن إطارها الروحي وعوديتها لنزعات الإلحاد والعلمانية، فثقافة الفلسفة الأوروبية، في طور المدنية التي قننها اشبنجلر فيلسوف الحضارة، أبعدت الإنسان عن صفاته الحقيقية. والواقع أنه لما سادت فلسفة أوروبا، ولما عم الفكر الغربي وجدنا الإنسانية تسقط في حمأة هذه النتائج السلبية. وأدى شيوع هذه النتائج في مداها الأعلى، إلى تهديد سلام العالم، بعد أن صارت الأفراد والحكومات تجرى وراء رغباتها الجامحة، ونتج عنها أعلى صورة من صور الوحشية التي تعادل في قسوتها جميع الآثام والشُرور في العصور الماضية، والإمام يعبر ببلاغة عن هذه الصورة في قوله في السنوحات " لقد قاءت هذه المدنية وحشية فاقت جميع القرون السابقة"<sup>(12)</sup> ويواصل الرجل تحليله لنتائج المدنية الغربية، فيرى أنه إذا كانت الحروب الطاحنة التي عانت منها البشرية تولدت عن العقلية الغربية المتخمة بفلسفتها العقلية المادية، فإن هذه المدنية أورثت نتائج أوسع أفسدت الهدف منها هي ذاتها" فالمدنية

الحاضرة الغربية، لسلوكها طريقاً مناقضاً لأسس دساتير السماء وقيامها بمناهضتها، فقد طُفح كيل سيئاتها على حسناتها وثقلت كفة أضرارها على فوائدها. فلقد اضطرب أمن الناس واطمئنانهم، وأقلقوا وأسنت سعادتهم الحقيقية فاحتل ما هو مطلوب من المدنية ومقصود منها. حيث قد حلت بسببها نوازع الإسراف والسفاهة محل بوادر الاقتصاد والفنائة...<sup>(13)</sup> وبفقدان المدنية الحديثة لقوانين السماء اضطربت حياة الإنسان وبدأت في الظهور دعاوى الهيمنة والتسلط والاستغلال وانتشر الاستعمار سحراً للضعفاء من البشر واستغلت ثرواتهم ومواردهم، وانشط العالم بين مستعمر مسرف في شره مفرط في ترفه، ومُستعمر شديد الفقر يعيش على الكفاف، وبين مستبد ظالم، وفاقد لحيته مظلوم، مما أدى إلى غياب الحق والعدل من أرجاء المعمورة البشرية، وحل الحقد مع زوال المحبة والاحترام المتبادل بين الأمم إنسانياً واجتماعياً، كما احتل توازن الثروة والدخل بين مجتمعات غنية وأخرى فقيرة، بسيادة العقلية الغربية التي أفسدت السعادة الدنيوية التي أمل فيها البشر لتحقيق مدنيته الحقيقية.

ويتابع النورسى نقده للنهضة الحديثة، فيرى أن ما تولد عنها من فقدان الإنسان لسعادته واطمئنانه، ثم انسحاقه تحت وطأة عنفوانها المادي، إنما يرتد إلى الأسس التي تقوم عليها هذه النهضة، ويحصرها الإمام في خمسة أسس تتناقض في جوهرها مع الأسس الحقيقية التي تأمرنا بها المدنية المتولدة عن الشريعة الإسلامية، وهي:<sup>(14)</sup>

1- الإيمان بالقوة والكفر بالحق الذي تنطلق منه مدنية الشريعة، مما أدى إلى الاعتداء والتجاوز على الأمم الأخرى، والخيانة للموازن العادلة والمعاهدات الصادقة والتصرفات المستقيمة، وبالجملة غياب العدالة والتوازن التي تنادى بها مدنية الشريعة.

2- الإيمان بالمنفعة التي تستوجب الرذائل في الأخلاق والقضاء على الفضيلة التي تنادى بها مدنية الشريعة، وتؤمن بنسبية الأخلاق التابعة لفلسفة المنفعة التي أدت إلى التزاحم والتخاصم الذي جنى على حقوق الأفراد والجماعات في مقابل ما تؤديه الفضيلة في مدنية الشريعة من محبة وتجادب.

3- تقوم المدنية الحديثة على الجدال والصراع الذي يؤدي إلى التنازع دون التعاون فهي تقوم على الصدام الحيواني في المنافسة والمدافعة، مقابل التعاون والتساند والاتحاد في مدنية الشريعة.

4- الإيمان بالرابطة القومية السلبية التي تنمو على حساب الآخرين وتؤدي إلى سيادة العنصرية والتصادم.

5- الانحلالية المواقبة لإزكاء الأهواء والشهوات، التي أسقطت الإنسان في عبوديته لأنانيته وتحوله إلى مسخ، بتبدل فطرته، وهبوطه إلى مرتبة أدنى من الحيوانية، لأنه صار عبداً لتشجيع المدنية الحديثة لهوى المنفعة، وإثارة النفس الأمارة، وتطمين رغباتها وتسهيل مطالبها، فسقط الإنسان من درجة الملائكية إلى درك الحيوانية الكلبية، وبهذا تكون سبباً لمسخ الإنسان معنوياً" حسب التعبير الحرفي للإمام، وهذا ضد مدنية الشريعة التي تضع الهدى بدل الهوى ليكون حاكماً على خدمات البشر، إذ الهدى يرفع الإنسان إلى مراقي الكمال، لأنها بتحديددها للهوى تطمئن الروح وتشوقها للمعالي. وإذا كانت نزعة الانحلالية الحديثة قد امتهنت مكانة المرأة وكرامتها، باعتبارها مجرد متاع مبدول، وما تابع ذلك من تبذل وإباحية مدمرة لكيان المجتمع، فإن مدنية الشريعة قد رسخت مكانة المرأة وكرامتها باعتبارها عاملاً فعالاً وأساسياً في تماسك المجتمع ورفقيه.

وهكذا وضع النورسي الحضارة الغربية بمدنيتها العقلية المادية الآلية في مقابلة مع المدنية التي تأمر بها الشريعة الإسلامية، حيث نطقت الأولى بالمسخ البين لأواصر الحياة المستقيمة، وعبرت الثانية عن صورة الحياة الحقيقية وليدة التعاون والمحبة والإخاء. وهذه المقابلة توضح بجلاء أن الإمام قد وضع يديه على الداء الذي أصاب البشرية الحديثة، ووضع لها الدواء الناجع في دعوته للأخذ بمدنية الشريعة الإسلامية، ففيها وحدها علاج اختلال تلك التوازنات المعنوية والمادية، منطلقاً في ذلك من القرآن الكريم الذي أكد بوضوح قيمة العمل والجهد الإنساني وعدم الإسراف والاعتدال في الإنفاق والاستهلاك، فهذه المبادئ عند النورسي تزيل الفوارق بين المجتمعات واختلال التوازنات بينها، كقوله تعالى " وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى ... [النجم: 39]، " وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا " [الأعراف: 31]<sup>(15)</sup>.

ويرتبط بنظرة النورسي السالفة للنهضة الأوروبية نظرتة للفلسفة المادية القائمة على الإلحاد، فيراها سفسطة لا حقيقة لها، إذ تحقر الكون بجعلها حقيقة نظامه، فتتنظر إلى الظواهر دون البواطن والأسرار، مما فقدت معه العقول النيرة ضالتها في هذه الفلسفة<sup>(16)</sup>. ويتبع ذلك تحول النظر إلى " الأنا" على اعتبار أنه حقيقة قائمة بذاتها، لا موهومة لها،

ومادامت الأنا تقوم بذاتها، فهي لا تعكس حقائق الوجود الثابتة ولا تتلقى الفيض الإلهي، لأنها تحولت وفق هذه النظرة السطحية إلى إله. فالأنا ينكر المعنى الذي يعكسه مادام يدعى لذاته أنه معنى بذاته، لا يوصفه مرآة عاكسة لمنايع الخير الإلهي وحسب. وعندئذ يظهر جانب الشر الذي تتجسد فيه أفعال الإنسان بحق. وطغيان الشر على الخير في الأنا، إنما تولد من تحول الوهم إلى حقيقة في جانب الخير، فانتقل الأنا من النقيض إلى النقيض، فبدل أن يفهم بربوبيته الموهومة التي يتصورها في دائرة ملكه ربوبية خالقه تعالى في دائرة الممكنات، أنكر ربوبية الخالق، وبدل أن يعرف بملكيته الظاهرية مالكية خالقه الحقيقية أعدمها، وبدلاً أن يدرك بعلمه الجزئي علم الله المطلق، لم يعترف بوجوده أصلاً، فظن نفسه إلهاً معبوداً، كما ظن في الحضارة معبوداً كذلك<sup>(17)</sup> وهذا ما يناقض الوجه الحقيقي للأنا الذي تنطق به النبوة، باعتبار الأنا مرآة عاكسة للحقائق الإلهية، لكونها عبدة لله من ناحية، ولأنها وجود اعتباري لا يقوم بذاته بل بغيره، كما أشار إلى ذلك ابن عربي حيث اعتبر في كتابه "فصوص الحكم" أن الخلق شبح، لأنه قائم بغيره، ولذا كانت ملكيته للأشياء ملكية موهومة<sup>(18)</sup> وأمام هذا الضلال ألهت الأنا ذاتها، ونسبت الخالقية للطبيعة والأسباب والمصادفة. والملاحظ أن هذه الصفات تنسحب فقط على الفلسفة المادية الإلحادية التي ترفض مبادئ الوحي الإلهي، وليس الفلسفة المؤمنة التي لا تحقر العقل كمصدر للمعرفة، ولا تحرف مساره كما فعلت الأولى، فغدت وسيلة للتردي في الضلالة. ويربط النورسي بين هذا المعنى وفلسفة الفارابي وابن سينا لتأثرهما بالفلسفة اليونانية، التي لم ينالوا بها إلا أدنى درجات الإيمان<sup>(19)</sup>.

وهكذا فرؤية النورسي للمدينة الحديثة إنما تنبع من معايير دينية أخلاقية، وهو ما يتسق مع طبيعته كرجل دين ومصلح في تقييمه للحضارة، ولا أدل على ذلك من كونه لا يجد الحل الأمثل إلا في مدينة تكفلها شريعتنا الإسلامية، ففيها النموذج الأمثل للمجتمع الحقيقي الذي يؤكد رقابة القيم المعنوية للدين التي غابت عن دائرة الوعي الأوروبي الذي أحال الدنيا إلى ميدان صراع وانسحاق للإنسان الباحث عن حاجات لا يملك الحصول عليها بكده وسعيه، فصار لاهناً خلفها بأى طريقة حتى ولو كانت ضد موازين الحلال والحرام، ولأن الوعي الأوروبي لم يستند إلا إلى نوع من الفلسفة المادية الإلحادية في إقامة مدنيته، فإنه لم يستطع تشييد هذا التوازن بين حاجات الإنسان

وكفاحه من أجل الحصول عليها، ولهذا هيجت مشاعره وأهوائه، وتحولت الحياة الاجتماعية من التوازن إلى الخلل، وظهر صراع الطبقات داخل المجتمع الواحد، ونشأ العداء بين الأمم، وظهرت الحروب إلى الأفق. ولهذا دعى النورسي المسلمين إلى عدم قبول هذا النموذج المختل للمدنية، لأن آثامه وشروبه وسلبياته تطغى على ما فيه من خير وجمال، فهو نموذج صارخ للشقاء الإنساني الذي كشفت عنه بوضوح الحرب الأولى والثانية كما أشرنا أنفاً. ومن ثم كان النموذج الإسلامي وحده هو الضامن لتحقيق بيئة نقية تبدو فيها وجوه جمال المدنية الإنسانية الحقبة بوضوح وجللاء، ويصل فيها الإنسان إلى السلام العام في كل مكان، والنورسي يقول "إن كفة حسنات الحضارة التابعة من القرآن الكريم ستتغلب حتماً على سيئات المدنية الحاضرة، بل يجعل المدنية سائرة في ركاب تلك القوانين السماوية، تخدمها وتعينها بدلاً مما يحدث إلى الآن من تنازل قسم من الدين لقسم من المدنية ومن دفع أحكام الدين رشوة في سبيل المدنية ... إن القرآن بما بضمه من قوانين مقدسة سماوية ... مستعد لتضميد تلك الجراحات الغائرة بقوانينه الأساسية السامية فضلاً عن أنه الكفيل بتحقيق سعادة دنيوية وأخروية للبشرية" (20)

### ثانياً : رؤية النورسي لعلم الكلام

#### 1- بؤرة الانطلاق ( التجربة النورانية مع القرآن الكريم ):

ترتبط رؤية النورسي لعلم الكلام بقضية الإصلاح التي اشترك فيها مع زعماء الإصلاح المحدثين في العالم الإسلامي مثل محمد عبده، وابن باديس، ومالك ابن نبي، ومحمد إقبال وغيرهم. وتنطلق هذه الرؤية عند النورسي من معايشة القرآن الكريم، وفهم آياته البينات، واستبطان حقائقها في عالم الأفاق والأنفس ليحقق نوعاً من التوازن في فكر الإنسان المسلم.

والواقع أن النورسي لم يهتم فقط بإصلاح علم الكلام، ولكن اهتمامه كان منصباً على تغيير ذاتية الفرد والمجتمع، وتثوير عقيدة كل منهما، من أجل خلق ذاتية الأمة، وبعدها يمكن إصلاح أي علم مهما كان اسمه، وإذا كان تجديد علم الكلام مرتبط بتجديد العقائد الإيمانية، فالأولى من تجديد العلم ذاته هو تجديد العقائد التي يعبر عنها

هذا العلم، أي الذي سيكون العلم خادماً لها، والسؤال الآن كيف تتجدد العقائد الإيمانية، مع أن العقائد ذاتها بوصفها معبرة عن نصوص نطق بها الوحي أو عبرت عنها السنة الشريفة ثابتة، فكيف نجددها إذن؟ - أن المقصود هو تجديد هذه العقائد داخل النفوس، بإصلاح بواطنها عملاً بقوله تعالى "إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم.." وهذا هو المبدأ الذي رسخه الوحي القرآني، وأعني به أن البداية من الداخل وليست من الخارج، البداية من الذات الحاملة لعقائد الإيمان، فإذا لم تتجدد ذوات الدعاة والمجددين، فلا حاجة للمجتمع بتجديد علوم يضيع هدفها سدى، لأنها لم تصدر عن الذات، فالذي يخرج من القلب يؤثر في القلوب، وما يخرج من اللسان لا يتعدى الآذان. ومن هنا سقط الفكر الإسلامي في دائرة التقليد لأن العقائد تحولت إلى رسوم دون أن تدق أبواب الجوارح الداخلية للإنسان فتجعل منه خليفة لله ظاهراً وباطناً، ومن حيث كونه مرآة عاكسة للصفات الربانية.

ومما سبق أستطيع القول أن المنبع والمصدر الذي نبعت منه أفكار النورسى إنما هو التجربة النورانية مع كتاب الله تعالى وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم. إن الرجل كان يبحث في منهج السماء وعن وقوده لإيقاظ المجتمع من سباته ومدته بالقوة والترابط. ورؤيته هنا ترتبط بأنه لا وجود لقوة في الأرض تملك قدرة التغيير إلا القوة التي تؤثر في قلب الإنسان وروحه وتربطهما ربطاً محكماً بالحقائق، وتثير فيهما نوازع الشوق والوجد إلا قوة الدين التي تنساب قدسيتهما إلى أعماق القلب فتحدث فيه تأثيراً جذرياً وعميقاً ودائماً، وعندئذ تتحول بذاتها إلى شئ كلي عام، وإلى قانون يفرض أحكامه على الناس ككل، وهو يحدد هذا المعنى في المكتوبات بقوله "إن قدسية المصدر تظهر تأثير براهين عديدة، وبهذه القدسية تفرض أحكامها على الناس" ومن هنا نبعت أفكاره في رسائل النور من قدسية القرآن الكريم، فهي معزوفة روحية تترنم بقدسية الآيات الكريمات، وهو يقول في المكتوبات "بما أننا نملك في أيدينا معجزة باقية مثل القرآن، فإن البحث عن برهان آخر يبدو لعقلي شيئاً زائداً، بما أننا نملك برهاناً للحقيقة مثل القرآن..." (21) لهذا اهتم النورسى في رسائله النورانية بالتركيز على إصلاح البنية الداخلية للإنسان لأجل تشكيل الروح على نحو حيوي وجذري يخلق في الإنسان هويته الحقيقية خلقاً، ويزرع في داخله شعوراً فياضاً علوياً يتزين بطلب رضاء الله والصفاء والإخلاص والفداء، فهي

المشاعر الإيمانية التي تضرب بجذورها في لحمه الحياة والتي لا تعرفها أي مدنية مادية، لأنها ليست متاعاً مادياً ولا مظهرًا لنظريات خادعة. ولهذا ربط النورسي كل ذلك بالعمل الحيوي، لأن ميدان أفكاره هو الحياة ذاتها، ومن ثم تظهر في الأفعال وتنبض بها سيماء الوجوه .

ومن هذا المنطلق الأسمى لبناء الذاتية من الداخل، تدعو رسائل النور إلى بناء المجتمع بناءً صحيحاً، فتدعو إلى تأمين الراحة العامة والهدوء الاجتماعي، رافضة جميع حركات الهدم والتمزيق، لأنها تؤصل الحركية الإيجابية الفعالة، مناهضة جميع الحركات السلبية بتقوية أواصر المحبة والأخوة والترابط والتراحم في بنية المجتمع، وتدعو بقوة إلى الاتحاد والامتزاج. ومن ثم تحارب بضراوة كل دعاوى وأفكار الفرقة التي حاولت إخماد روح الأخوة التي هي أخص خصائص الدعوة القرآنية، ومن ثم فهي تضع قواعد لبناء الأمة في مقابل دعاوى القبليّة والقومية والعنصرية والمليّة السلبية والشعوبية.<sup>(22)</sup>

ومن ثم ارتكزت . أفكار النورسي في رسائله علي خدمة الإيمان لأجل نيل الحياة الباقية الأبدية. ولهذا كانت أفكاره سعيًا مضيئاً دؤوباً لأجل إنقاذ الإنسان من مستنقع الكفر والفسق والضلالة، وإعمار ذاته بالإيمان، بل وإعادة خلقه إنساناً جديداً حتى يصل إلي درجة الوجد والعشق وهي الدرجة التي تمثل المحور الحقيقي للفكر النورسي كله، وهي لعمرى مسحة صوفية غلفت أفكار الأمام ولعلها تعود إلي تأثره بالفكر الصوفي المتدفق عند مولانا جلال الدين الرومي، فالإنسان ليس بدنا، ولهذا فالفلسفة الحقة لا تخدم بدنه فقط، فلا بد من غذاء القلب والعقل والروح حتى يتزرع الجسد الذي يموت عندما تنطفئ في خلاياه أنوار الروح، لهذا كانت دعوة رسائل النور دعوة أخروية، تدعو للأخرة وهي تعمر مزرعتها، أعني تعمر مسار الحياة الدنيا، حتى تصلح الآخرة بصلاح أمر الدنيا، أنظر للإمام وهو يصفع الإنسان على وجه قلبه منبهاً إياه إلي حقيقته التي ربما غابت عنها في تلفعه ببردة الآلية الدنيوية "أعلم أيها الغافل ! أنه لا يليق بك أن تربط قلبك وتعلقه بما لا يرافقتك بعد فناء هذا العالم، بل يفارقك بخراب الدنيا، فليس من العقل في شيء ربط القلب بأشياء فانية ! ولما كان باب القبر لا يغلق فأجل مسألة لديك لا بد وأن تكون قلقك علي ما وراء القبر. ألا تري أن فيك لطيفة لا ترضي إلا بالأبد والأبدي ولا تتوجه إلا إلي ذلك الخالد ولا تنتزل لما سواه؟..."<sup>(23)</sup>

وبناء عليه فقد وضع النورسي الأسس التي تقوم عليها رسائل النور، والتي تحقق إصلاح البنية الداخلية للفرد والجماعة علي السواء فيرى أن :

أ- الأساس الأول هو الإيمان، فقد كان هدف النورسي في رسائله أيضا حقائق الإيمان وإثباتها وتفصيلها واستخدام في هذا الإثبات العلم والعقل والإيمان، فلما كان عصره هو عصر الضعف الإيمان ونشر الضلالة القادمة من ثقافة المدنية الغربية، فقد أضر ذلك المسلمين وصار الجهاد المعنوي لهذا المرض أمراً حتمياً، فدافع النورسي عن الإيمان ضد هجمات الأفكار الضالة بتوضيح الحقائق الإيمانية وفقاً لمدي الفهم الذي بلغه عصره، لأن الرقي والتقدم الاجتماعي كانا مرهونين عنده بالإيمان . وللإيمان صورتان أراد أن يبدل أحدهما بالأخرى أعني أن يبدل الإيمان التقليدي بالإيمان التحقيقي وتقويته وإنقاذه، وفي إنقاذ الإيمان إنقاذاً لبناء الإنسان نفسه الذي يقوم علي أركان الإيمان وهي الإيمان بالله تعالي والنبوة والحشر. ولهذا كانت العلوم الإيمانية أهم الأشياء للإنسان، فهي سلطان العلوم جميعاً. فالإيمان هو أساس رسائل النور، ومن ثم فهو المبدأ الجوهرية الذي تقوم عليه صلاح البنية الداخلية للإنسان، وبالتالي بناء العلم الجديد. ومن ثم كانت إنطلاقاته النورانية تفسيراً لجوهر الإيمان في القرآن الكريم .

ب- الأساس الثاني هو ارتباط العلم بالإيمان وفيه ينهج النورسي نهجاً قرآنياً خالصاً، إذ يتحدث عن الكون بشكل كلي إجمالي، يوضح حقائق العلم ببساطة ودون تعقيد. وهو هنا لا يري فرقا بين العلم والدين فهما متحدان، لأن الإسلام كما يقول أستاذ للعلم وأب له، لأنه لا وجود لتعارض بين الإسلام والعلم.

لأن ترسيخ هذا التعارض يضر بالإسلام ويمنع انتشاره، ومن ثم وجب تقديم العلم ممتزجا بحقائق الإيمان، لأنه في الفصام النكد بينهما يري جيلا غافلا عن الإيمان، مما يضر ببنية المجتمع ضرراً بالغاً، وفي هذا الصدد أشار إلي وراثه العلم عن أبينا آدم الذي فضله ربه علي الملائكة بالعلم ( البقرة 31 ) وكانت معجزته هي تعلم الأسماء، وهو منتهى الكمال البشري وذرورة رقيه وكأن الله تعالي كان يحض ورثة آدم عليه السلام علي طلب علم الأسماء، لأنه علم الأمانة الكبرى التي تفض معها مغاليق الطبيعة وتسخرها للإنسان، والتي يرفع التأمل فيها إلي أعلي سماوات العلم والحكمة والكمال، والنورسي يشير هنا إلي الكمال المعنوي والمادي معاً، ومعجزات الأنبياء جميعاً لتشير

بجلاء إلى تحصيل هذا الكمال المادي والمعنوي، كما تشير إلى أستاذية القرآن للحضارات ومنبع الرقي والتقدم العلميين<sup>(24)</sup>

ج- الإيجابية وهي ظاهرة في رسائل النور، وهدفها كما أشرت آنفاً هو إصلاح الفرد أولاً، ولما كان التخريب قد بدأ في القلب فبدأ بإصلاح القلب، وكل من يبدأ بالإصلاح لا بد وأن يبدأ بالقلب وإلا فشلت محاولته. ولهذا بدأ بإصلاح نفسه، ونادي بالتمسك بالأخلاق الإسلامية في الخطبة الشامية قائلاً " لو تمسكنا بالأخلاق الإسلامية وأظهرنا بأفعالنا هذه الكمالات لدخل أتباع سائر الديانات في الإسلام أفواجا... " <sup>(25)</sup> ولهذا دعي إلى إقناع المتمدينين والإقناع هو طريق الغلبة عليهم. <sup>(26)</sup> فالإقناع والإثبات هما منهج الإسلام، لأن الإسلام لا يقبل عداوة أو نفورا أو هجوما لأنه نور، وانتشاره يجب أن يكون نورانيا كذلك. لهذا آمن النورسي بأن الإصلاح يتحقق بالحركة المعنوية وإرشاد أفراد المجتمع وتنويرهم، لأن الحركات الثورية التي تقوم على القوة المادية تضر الأبرياء من النساء والأطفال والشيوخ، ولهذا كان ديدنه دائما الانطلاق من العجز تجاه الله تعالي وفقره أمامه وبهما يرقى المؤمن ويسمو بقدر إدراكه لذلك، ولذا فإن عجزه بالعبادة يوصله إلي اسم المحبوب ويوصله الفقر لأسم الرحيم وبسلوكه بما معا يصبح مرآة لتجلي الصمدانية. ولهذا كان ديدنه الشفقة على الأبرياء باسم القرآن والسعي لإنقاذهم والعمل من أجلهم، فطريق الشفقة هو طريق الرحمة، وأنها دستور الحياة الحقيقي. <sup>(27)</sup>

د- الإخلاص. وهو لا يعني إلا طلب رضاء الله تعالي، وفي رسالته عن الإخلاص دعي إلي ضرورة ترسيخ سره في الذات، لأن فقدانه ضياع لخدمة أسرار القرآن، وفقدان للسعادة الأبدية لأجل مطامع دنيوية زائلة كالرياء والإعجاب بالنفس، فنجاح الإنسان في إخلاصه لله تعالي، فهو الشفرة المعنوية لخدمة آيات الله تعالي والظفر بأسرارها وكسب الإخلاص يأتي برابطة الموت التي تنفر من الرياء وتربط الإنسان بالإخلاص، كما أن الإخلاص يعطى النفس حضورا وسكينة . وفي الإخلاص تدعيم لرابطة الأخوة التي تطورت عند النورسي فصارت " فناء في الأخوان". بما يعني أن يفني كل منا في الآخر، فينسى كل منا حسياته لأجل الآخرين، أنه منطلق الأخوة في الله. <sup>(28)</sup>

## 2- تجديد العلم

أحقا كان هدف النورسي هو تجديد علم الكلام بعينه أم أن هدفه كان تجديدا لعلم العقيدة؟ إن معايشة رسائل النور من الداخل لتومئ إلي أن النورسي لم يهدف منها إلا تفصيل الأهداف القرآنية، وشرح حقائق الإيمان ومعرفة الخالق الصانع، وهي تعبر عن مدرسة حياتية إيمانية ترتبط ارتباطا وثيقا بعصر النبوة، حيث كان الوحي في بؤرة الشعور، وكانت الحياة ترجمة له دون مذهب علمية. ولأن ذلك هو رؤية الرسائل، فإن الهدف الإصلاحية ينصب علي كل ما هو إسلامي، ولهذا لم تكتف بشرح حقائق القرآن حسب إدراك العصر وفهمه، بل إنها بشرح القرآن علي ضوء العلوم بضرب الأمثلة علي ذلك، وبإيضاح أن كتاب الكون، الذي يكون القرآن ترجمته الأزلية يتعلق بمنظومة العلوم جميعا الذي يعد الإسلام جوهرها. ورسائل النور بهذا أثبتت أن الحقائق القرآنية تتطابق مع الحقائق الكونية الأولى بظهورها للوجود بصفة الكلام والثانية بصفة القدرة، وبظهور هذا جليا، ظهر تميز الإسلام وامتيازه علي سائر الأديان التي يختلط فيها الحق بالباطل والنور بالظلمة. ومن ثم فقد حثت الرسائل علي قراءة كتاب الكون عندما أشارت إلي أن حروف كتاب الكون وآيات تشكل منابع الحقائق القرآنية.<sup>(29)</sup> وهكذا فإن أفكار النورسي في رسائل النور "ليست تصورا، بل تصديقا، وليست إسلاما وإنما إيمانا، ولا معرفة بل شهادة وشهود، ولا تقليدا بل تحقيقا، ولا التزاما بل إذعانا، ولا تصوفا بل حقيقة، ولا إدعاء بل برهانا في ثنايا الدعوى". وبالنسبة لعلم الكلام، كما أشرت آنفا، فإن النورسي ينفي التجريد العقلي الذي يقوم علي الإيجاز الشديد، ويعمد إلي الأسلوب المفصل الذي ينتهي به إلي جذور القضايا التي يبحثها، فيقدم تخطيطا كونيا، تبدو عليه الموجودات حتى الخلايا البعيدة. فهو لا يقنع بالمعرفة الجزئية لأنها عنده من نواقص العقل البشري. فالمعرفة الشمولية بالكون لا تتحقق لمن قنع بجانب جزئي حتى ولو كان غوصا لسر من أسرار النفس، أو معرفة حقيقة من حقائق الكون، فكل ذلك يفقد الإتساق في النظر إلي الكون في جملته. والنورسي لا يؤسس علما للكلام بل هو يضع الرؤية الشاملة للوجود ككل، وهي رؤية فلسفية بالدرجة الأولى. ومن ثم كان فهم القرآن في كله ومعدمات أولية ونتائجها ومعارفها جميعا، ثم بالإطلاع علي حقائق عالم

الأنفس والآفاق هو الذي يرسم بوضوح صورة الموازنة الكاملة عند العالم والعارف المسلم. وخاصية الموازنة والجمع هذه لا وجود لها في آثار البشر، لا عند المفكرين ولا الأولياء النافذين إلي حقائق الكون... بل كل منها أمسك بغصن أو اثنين من شجرة الحقيقة العظمي فانشغل مع ثمرة ذلك الغصن كلياً دون الالتفات إلي بقية الأغصان.<sup>(30)</sup>

فالنورسي باعتماده الكامل علي القرآن الكريم، قد عمد إلى البساطة والشمول، فخلص علم الكلام من تجريده النظري المعقد الذي لا يفهمه إلا الخواص، فحوله من علم مغلق إلي علم مفتوح كما أشرت آنفاً. ومن هنا عبر عن حقائق التوحيد ودقائق العقيدة الإسلامية بشكل لا يفهمه المسلم وحسب، بل يعانیه قلباً وجداناً، لأنها صارت حاضرة فوق صفحة الكون، فهو منهج قرآني شامل يبدد الغفلة والظلمة، ويظهر أنوار التوحيد باستخدام العلم. فهو يبدد ظلمة المذهب الطبيعي الكاذب براهينه التي استقاها من نظام الوجود الدقيق في عالم الطبيعة، فهو شاهد علي وجود الله تعالي ووحديته<sup>(31)</sup> ويقول النورسي عن رسائله "صارت مسائل هذه الرسائل... كأنها مبرهنة استدلالية فيمكن لمن ضل من جهة الفكر والعلم أن يستفيد منها ما ينجيه من مزالق الأفكار الفلسفية، وبالتهديب والإيضاح يستخرج عقائد إيمانية وعلم كلام جديد..."<sup>(32)</sup> "ومن الأمثلة التي يضرها النورسي علي ذلك، ليزيل بها الشكوك في معاني بعض النصوص بمعاني معاصرة لا تصطدم بطبيعة النص، فهي تعبر عن استدلالات علمية توصل إلي برد اليقين، ففي تعبيره عن قوله تعالي "تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالْأَرْضُ وَمَنْ فِيهِنَّ" [الإسراء:44] يقول: "إن لأضخم الموجودات وأكثرها سعة وشمولاً تسيبها خاصاً منسجماً مع عظمته وکليته، والأمر واضح ومشاهد، إذ السموات الشاسعة مسبحة لله وكلماتها التسيبحة هي الشمس والأقمار والنجوم، كما أن الأرض الطائرة في جو السماء مسبحة حامدة لله وألفاظها التحميدية هي الحيوانات والنباتات والأشجار، بمعنى أن لكل شجرة ولكل نجم تسيبحاته الخاصة به، مثلما للأرض برمتها تسيبحاتها الخاصة بها، فهي كلية تضم تسيبحات كل جزء منها وهكذا..."<sup>(33)</sup> فالنورسي هنا يدرك الطبيعة المادية لعصره، وهو عصر انتهى مع مادية أوروبا إلي التشكيك في الغيب، لأنه عصر لا يؤمن إلا بالمحسوس، مما تمخض عنه تخريباً حضارياً هائلاً في المدينة الحديثة وطبع بدوره علي العالم الإسلامي نتيجة تبني بعض العقول فيه لمناهج المدنية الوضعية، فبدأت

موجه الشك، تجتاح العالم الإسلامي في دوائره السياسية والثقافية والإعلامية، في كل ما هو غيبي لا يرتبط بالمحسوس البشري كاليوم الآخر وأسرار الروح والملائكة، فكانت صدمة النورسي الذي أخذ علي عاتقه مهمة التفصيل العقلي الشامل لحقائق الكون وخالفه ويوم الحساب والنبى الداعي، باعتماده علي الأسلوب الشامل في الحديث المترابط مع الكون بما يتضمن من استدلالات برهانية واضحة. فوجود الله يستدعي بالضرورة وجود الكون، وظهور كماله يستدعي ضرورة اليوم الآخر، ولا يمكن فهم ذلك في الدنيا إلا بالأنبياء والمرسلون وخاتمهم سيدنا محمد عليه الصلاة والسلام، لأنهم وسيلة الإنسان لفهم ذلك.

و يرفض النورسي أن يبدأ الاتجاه الإصلاحى من السياسة بسبب الاضطهاد والمعاناة التي يمكن التعرض لها من السياسة رغم أنه دخل السجن وتعرض للنفي، فألح علي أن الإصلاح يبدأ من الفرد باعتبار نواة المجتمع، وينطلق في حركته الإصلاحية من تربية الأفراد علي القيم والمعتقدات الدينية حتى يمكن مواجهة المبادئ العلمانية التي تفشت في المجتمع. فالفرد هو المخاطب للصانع الجليل، إن كان له نظر عام وشعور كلي، لأنه يصرف كل نظره العام وعموم شعوره الكلي للتعبد لصانعه، وإلي استحسان صنعته، فمن البديهي اتجاه الإصلاح في ذلك الفرد الفريد والحبيب المحبوب. (34) ولم يهتم النورسي بإصلاح عقائد الفرد المسلم وقيمه وحسب، ولكن اهتمامه انصب علي الفرد داخل سياقه الاجتماعي لأن الفرد ليس جزيرة منعزلة، كما أنه ليس في مقدوره مواجهة المد الإلحادي وحده، كما لم يستطع هو نفسه أن يفعل ذلك، وقيمة الفرد بما يحمله من القيم المعنوية للجماعة، لذا ركز النورسي علي الجماعة من حيث أن عليها مد الفرد بقوته المعنوية. وهو الأمر الذي دعا النورسي إلي ضرورة اندماج الفرد داخل الشخصية المعنوية للجماعة، وينبغي حماية فرديته الداخلية. (35) وهو ما سعي إليه هو نفسه بالفعل بتوحيد صفوف تلاميذه، وإرساء قيم الإخلاص بينهم وسحق الأنانية فيهم. (36) ويؤكد الرجل ضرورة اتحاد الجماعة التي تدين بالإسلام، ويسميها أهل الحق لأن أهل الضلالة يحاولون الاتفاق علي الإسلام، ومن ثم سعي الرجل إلي وضع أسس وحدة الجماعة الإسلامية ككل، وبشتى المذاهب الإسلامية، سعياً وراء درء الاختلاف بينها، وأجملها فيما يلي : -

- 1- العمل الإيجابي البناء وهو بمقتضى محبته لمسلكه دون أن يرد لتفكيره عداء الآخرين.
  - 2- العمل علي تحري روابط الوحدة الكثيرة الرابطة للمشارب المعروضة في ساحة الإسلام، والتي ستكون منابع محبة، ووسائل أخوة واتفاق فيما بينهم فيتفق معها .
  - 3- العلم أن الاتفاق مع أهل الحق هو أحد وسائل التوفيق الإلهي، وأحد منابع العزة الإسلامية.
  - 4- ترك دواعي الحسد والمنافسة والأحاسيس النفسية التافهة، وترك ما يتصور خطأ انه من العزة والكرامة.
  - 5- اتخاذ دستور الإنصاف دليلاً مرشداً، وهو أن صاحب كل مسلك يستطيع القول بأن مسلكي حق وهو افضل وأجمل، من دون أن يتدخل في مسالك الآخرين.
  - 6- ترك غرور النفس وحظوظها<sup>(37)</sup>
- ولهذا سعي النورسي علي المستوي النظري إلي إصلاح علم أصول الدين أو علم الكلام لارتباطه الوثيق بالعقيدة علي المستويين الفردي والجماعي، ولذا أكد أن تحديد علم الكلام لا بد وأن يتولد من عرض أهمية الدين ودوره في حياة الشعوب الإنسانية بعامة والإسلامية منها بخاصة، فالدين هو السبيل الحقيقي لارتقاء الأمة ورفقيها، فالدين إذا قام علي قواعد الأمر الإلهي الحق ولم يختلط بالأباطيل، ففيه السعادة التامة لمعتقديه. ومن ثم لا يستطيع شعب أن يبقى بلا دين، ومن هنا رأي الرجل أن أبعد الأمم عن الدين، سوف تعود إليه، وهنا يري أن الإسلام هو الإنسانية الكبرى وشريعته هي المدنية الفضلى، و لذا لا يرقى إلا برقى الإسلام ولا رفعة إلا بتجلي حقائق شريعته.<sup>(38)</sup> ولأهمية الدين في حياة الشعوب الإسلامية كان من الضروري تحديد علم الكلام الذي يحدد فهمنا للمعتقدات الدينية، فتجديد الفهم يؤدي بدوره إلى استمرار دور الدين بفاعلية في حياة الشعوب، و يتركز هذا التجديد علي تحديد الفهم الذي يتجدد بتطور الواقع وتغيره. ومن الأسس التي تفرض علينا تجديد هذا العلم سوء حاله الدعوة الدينية، حيث تناسي القائمون علي الوعظ الفرق بين الحاضر والماضي، فبالغوا في تصوير دعاويهم وتزويقها دون أدلة كافية يحتاجها الزمن الحاضر، لذا يرتد سوء الدعوة الدينية لافتقادها للأساس النظري الجيد لعلم أصول الدين.<sup>(39)</sup> إلي جانب هذا انتشار آفة التقليد التي

ذهبت بروعة الدين، وأفسدت روحه الحقّة.<sup>(40)</sup> والواقع أن تجديد علم الكلام عند النورسي يبدأ من تجديد الإيمان كما أشرنا آنفاً، لأن تجديد الإيمان وتعميقه يؤدي إلى تغيير وجه الحياة في المجتمع الإسلامي، والرجل هنا يرصد حاجة المسلمين إلى تجديد إيمانهم بالقرآن الكريم تجديداً ينقلهم من الإيمان التقليدي إلى الإيمان اليقيني الذي لا تنال منه الشبهات، الذي يملأ القلوب ويملك النفوس.<sup>(41)</sup> ولهذا السبب رفض النورسي علم الكلام في صورته القديمة التي تبتعد عن طريقة أهل السنة باعتبارها الطريقة المثلى للولاية.<sup>(42)</sup>

### وختلاصة بحوث النورسي في تجديد علم الكلام تتمحور حول ما يلي :

1- انتقد النورسي منهج المتكلمين (قياس الغائب علي الشاهد) لأن هذا المنهج يري واجب الوجود من خلال الممكنات، فهو قياس خادع لا يورث المعرفة المطمئنة للقلب، علي حين أن معرفة القرآن الكريم وحدها هي التي تحقق الاطمئنان القلبي.<sup>(43)</sup> وبالرغم من هذا فقد استخدم هذا المنهج في مواضع عديدة، بالإضافة إلى تبنيه منهجية خاصة به في علاقة الإنسان بالله تعالى، وهي منهجية صوفية رأى فيها أن الإنسان مرآة عاكسة لإثبات الصفات والأسماء الإلهية، فالإنسان عاجز، والله هو القوي، والإنسان فقير والله هو الغني، وهي منهجية تعبر عن روح صوفية في فكر النورسي ربما انحدرت من تأثره بابن عربي.<sup>(44)</sup>

2- اعتمد النورسي في بناء منهجه الفكري في علم الكلام علي الأدلة النقلية كالكتاب والسنة والإجماع ثم الحجة العقلية التي تدور في فلك الكتاب والسنة، فهو يعطي الأولوية للدليل النقلية علي الأدلة العقلية.<sup>(45)</sup>

3- يؤسس النورسي منهجيته الفكرية علي الاستدلال القرآني لقضايا علم الكلام من خلال طريقتين : الأولى هي طريقة التأمل الآفاقي والنفسي في الكون للوصول إلي وجود الله وأثبات قضايا العقيدة.<sup>(46)</sup> والثانية هي طريقة ضرب الأمثال لتوصيل قضايا العقيدة للعوام من المسلمين، وهي طريقة يري أنه استمدّها من القرآن الكريم<sup>(47)</sup> غير أن هذه الطريقة ضرب آخر من ضروب قياس الغائب علي الشاهد الذي انتقده النورسي من قبل.

4- حاول النورسي كذلك أن يبني منهجه علي جميع اللطائف، والجوارح الإنسانية، فمزج في رؤيته الفكرية بين العقل والقلب، وهو قد أعطي للقلب والذوق والحدس مساحة كبيرة، ولذا ألح علي أنها فيوضات ربانية.

ورغم تأكيد علي أهمية العقل في رسائله إلا أنه رأى أن للعقل حدودا لا يمكن تجاوزها فمزج بين العقل والقلب حتى يكمل كل منهما الآخر، واعتماد الرجل علي القلب أثر من آثار الصوفية<sup>(48)</sup>.

5- إن منهجية النورسي النورية تخاطب جوارح الإنسان وملكاته العقلية والقلبية، وهو الأمر الذي ساهم في قيام تصور الموضوعات العقائدية علي نوع من الحركية الإنسانية التي لا تستند إلي جمود العقل وسكونه، وإنما تخاطب المشاعر الإنسانية، وتمس القلب والجوارح، وتركيزه علي ذلك قد ساهم في تحريك الإنسان إلي الفعل والسلوك بناء علي ما يعتقد، وليس الوقوف عند حدود الإيمان النظري المجرد كما يستند علم الكلام القديم. فمنهجه يقوم علي الاستدلال القرآني المحرك نحو العمل والفعل ولا يقف به عند حدود الاعتقاد النظري المجرد، وهو أهم ما يميزه من مناهج المتكلمين التي تعتمد علي الاعتقاد النظري، كما يتميز عن بعض مناهج الصوفية التي أدت إلي الشطح.

6- أن أهم ما يميز رسائل النور أن الروح الصوفية هي الروح المسيطرة علي منهج النورسي، وعلى الرغم من تأكيد علي أنه يعتمد علي الكتاب والسنة، وعلي الاستدلال القرآني، فهي يتعاطف مع الصوفية رغم نقده لهم، بدليل أنه في نقده للمنهج الكلامي اعتمد علي منهج الصوفية في علاقة الإنسان بالله، مما جعله يعطي أهمية كبرى للقلب والإشراق، بل أنه رفع القلب علي العقل.

وخاتمة الأمر كله أن الإمام النورسي قد كتب رسائل النور في قضايا العقيدة وعلم الكلام بروح المتصوف علي الرغم من أنه اعتمد علي الأدلة العقلية البرهانية.

## المصادر والمراجع

أشير هنا إلي أنني اعتمدت بصورة كاملة على كليات رسائل النور للنورسي التي ترجمها الأستاذ إحسان قاسم الصالحي ونشرت في القاهرة بدار سوزلر للنشر من 1992 - 1998م-

### الهوامش

- 1- سعيد النورسي : الكلمات، ص 514 وما بعدها
- 2- النورسي : صيقل الإسلام، السنوحات، ص 368
- 3- المصدر السابق : نفس الموضوع
- 4- المصدر السابق : نفس الوضع وما بعده
- 5- المصدر السابق : نفس الموضوع ما بعده
- 6- النورسي : اللغات (لمعة 17) ص 178
- 7- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 377، ص 380
- 8- المصدر السابق : ص 379
- 9- النورسي : اللغات (لمعة 17) ص 180
- 10- المصدر السابق : ص 176 وما بعدها
- 11- المصدر السابق : ص 177
- 12- النورسي : السنوحات (صيقل الإسلام)، ص 358
- 13- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 377 وما بعدها
- 14- النورسي : السنوحات، ص 357 – 359
- 15- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 378
- 16- النورسي : اللغات، ص 367، الكلمات ص 369
- 17- النورسي : الكلمات : ص 636، ص 638
- 18- المصدر السابق : ص 640 – 641
- 19- المصدر السابق : ص 648
- 20- النورسي : الملاحق (أميرداغ 2) ص 380 وما بعدها
- 21- النورسي : المكتوبات : ص 111
- 22- النورسي : كليات رسائل النور، مواضع متفرقة في المكتوبات والملاحق والكلمات  
واللغات
- 23- النورسي : اللغات ص 174، ص 401
- 24- راجع تفصيل ذلك في كتاب الكلمات (المقام الثاني من الكلمة العشرين) ص 289
- 293، قارن الملاحق : (أميرداغ 1) ص 314
- 25- النورسي : الخطبة الشامية، ترجمة إحسان قاسم الصالحي، لبنان 1974، ص 35
- 26- المصدر السابق : نفس الموضوع
- 27- راجع النورسي : الملاحق (أميرداغ 1)
- 28- النورسي : اللغات (لمعة 21) ص 245 – 251

- 29- راجع النورسي : الكلمات (زهرة اميرداغ ) ص 526 وما بعدها
- 30- النورسي :الكلمات : 2ص ص 512 – 515
- 31- راجع المصدر السابق : ص 81 – ص 82، الشعاعات ص 8 وما بعدها
- 32- النورسي : الكلمات ص 187 .
- 33- النورسي : الكلمات، الكلمة الثانية عشرة، ص 252
- 34- النورسي : المكتوبات التاسع والعشرين ص 567
- 35- النورسي : الشعاعات، الشعاع الثالث عشر ص 376 .
- 36- النورسي : المصدر السابق ص 299 .
- 37- النورسي : صيقل الإسلام، المحكمة العسكرية العرفية ص 457 .
- 38- النورسي : المصدر السابق، ص 473، راجع أيضا : اللمعات، ص 139 .
- 39- سيد أمير علي : روح الإسلام، ج<sup>2</sup>، ص 55 .
- 40- النورسي : الملاحق، ملحق قسطموني، ص 196 .
- 41- النورسي : المصدر السابق، ص 208 .
- 42- النورسي : صيقل الإسلام، ص 130، الشعاعات والشعاع الرابع ص 83 المكتوبات، المكتوب السادس والعشرون، ص 424 وما بعدها.
- 43- النورسي : المثنوي العربي، شعلة من نور شمس القرآن، ص 401 .
- 44- راجع النورسي : المكتوبات، ص 477، اللمعات، رسالة مراقبة السنة وترياق البدعة، ص 80 وما بعدها.
- 45- النورسي : المكتوبات، رسالة التلويحات التسعة، ص 575
- 46- إحسان قاسم : النورسي حياته وأثاره 178 وما بعدها، سيرة ذاتية، ص 243 .
- 47- النورسي : الملاحق، ملحق قسطموني، ص 205 .
- 48- النورسي : المكتوبات ص 482 .